مجلة علوم التربية

دورية مغربية متخصصة

- منظور جديد للقيادة التربوية بالمغرب
- تصور جديد لمهنة وهيئة التدريس
- سيكولوجية المتطرف الانتحاري
- التكوين المستمر بقطاع التعليم المدرسي
- لماذا ندرس اللغة الأمازيغية في المدرسة المغربية؟

العدد التاسع والثلاثون- يناير 2009

الدرس الأدبي وسؤال القيم

سعيد الفراع*

يشكل سؤال القيم في الدرس الأدبي بالمرحلة التأهيلية من التعليم الثانوي. أحد الأسئلة المطروحة على المهتمين بتدريس الأدب. لما يطرحه من قضايا مرتبطة بتنمية الميولات والتفضيلات. المتعلقة بطرق الوجود الاجتماعي الممكنة لدى الفئة المتمدرسة. وهي ميولات ترتبط بشحنات عاطفية ووجدانية قوية تقود المتمدرس إلى اختيار مُثُل أو قيم سامية. تحفزه على التعلم والتفاعل الإيجابي مع قضايا مجتمعه والعالم الذي يعيش فيه. وبالتالي بناء الشخصية المؤثرة والقادرة على مواجهة التحديات والرهانات المتعلقة بمسار المجتمع الذي ينتمي إليه.

غير أن التأكيد على البعد الجماعي للقيم لا يلغي خاصيتها الفردية. فالتلاميذ أو الأشخاص عموما يمتلكون قدرا من الحرية. ومن ثم نوعا من الاختلاف في التجاوب مع قيم محددة. والاقتناع بها في مقابل أخرى يهملونها أو يرفضونها لدواعي متعلقة بشروط التنشئة الأسرية والاجتماعية والحوافز النفسية الخاصة بكل فرد أو متمدرس.

لهذا تعرف غالبية المجتمعات نوعا من التعدد القيمي والاختلاف في المواقف (باستثناء المجتمعات الخاضعة لأنظمة استبدادية والتي تفرض قيما إيديولوجية أحادية) مما يساهم في بلورة قيم إنسانية واجتماعية سامية تنتصر إلى كل ما هو نبيل وإيجابي وتحفز على الإبداع والعمل.

ولا يقتصر إنتاج القيم على مجال واحد. بل يمكن ملاحظتها من خلال أشكال تعبيرية مختلفة ومتعددة. لسانية وغير لسانية ومن بينها الكتاب المدرسي.

وفي هذا السياق تَضمَّن العدد الأخير من مجلة « الفرقان » [1] ملفا خاصا حول « القيم في الكتاب المدرسي » بالمغرب. باعتباره أحد المحاور الأساسية التي ينهض عليها أي مشروع تربوي. يسعى إلى تكوين متمدرسين متشبعين بالقيم الإنسانية النبيلة. وقادرين على تمثل الخصوصيات القيمية للمجتمع الذي ينتمون إليه.

وما يثير الانتباه في هذا الملف. هو ما تضمنه مقال الدكتور مصطفى بنان الذي عنونه بـ» فقر القيم في

---

* أستاذ مادة اللغة العربية بثانوية عبد الله الشفشاوني التأهيلية نيابة فاس. وباحث في مجال الأدب العربي.

الكتب المدرسية للغة العربية بالمرحلة التأهيلية»[2] من أحكام قيمية. على مجموعة من النصوص الشعرية الجيدة التي تضمنها كتاب «الممتاز في اللغة العربية» وخاصة نص «مقابلة خاصة مع ابن نوح» للشاعر المصري أمل دنقل. ونص «الخروج» لصلاح عبد الصبور واصفا صاحب النص الأول بالخيال المريض والثاني بالشخص الذي مسخ وقلب بعض مشاهد الهجرة النبوية.

وهو الحكم نفسه الذي ينطبق من مظور كاتب المقال على نصوص كتاب «واحة اللغة العربية». إذ«لم تتخلف النصوص الشعرية الحداثية في «الواحة» عن دأبها في الكتاب السابق في استدعاء الأساطير البابلية الآشورية الوثنية كما في قصيدة «سربروس في بابل» للسياب. أو الأساطير اليونانية القائمة على الصراع ضد الآلهة الشريرة كما في نموذج شعري لأحمد المجاطي»[3].

وقبل مناقشة هذه الأحكام القاسية، التي لا تخلو من تعسف في حق التجربة الشعرية العربية الحداثية من خلال نماذجها الرائدة. لا بد من الإشارة إلى أن الحديث عن القيم في النص الشعري. هو حديث عن مسألة المعنى في هذا النص باعتباره واقعة دالة. وغير خاف أن المعنى كيان مبني وليس معطى جاهزا. فاستراتيجيات التلقي أو القراءة هي التي تتحكم في إنتاج المعنى. لهذا يمكن القول أن قراءة الأستاذ بنان للنصوص الحداثية. هي نمط من أنماط القراءات المتداولة في حقل التلقي الأدبي العربي. والتي لا يمكن إلغاءها أو إنكارها. ما دام التلقي الشعري مشروط بالذائقة الشعرية للقارئ. أو ما يصطلح عليه «هانس روبير ياوس» (Hans Robert Jauss) بأفق التوقع[4]. في مشروعه الموسوم بـ«جمالية التلقي». والذي يَـنتُج بالنسبة لأي عمل عن ثلاثة عوامل أساسية: تمرُس الجمهور السابق بالجنس الأدبي الذي ينتمي إليه هذا العمل. ثم أشكال وموضوعات أعمال ماضية تُفترض معرفتها في العمل. وأخيرا التعارض بين اللغة الشعرية واللغة العملية. بين العالم الخيالي والعالم اليومي.

غير أن انتقال النص الأدبي من التلقي الفردي إلى التلقي الجماعي المُتمثل في التلقي المدرسي. يفرض قيودا على عملية اختيار النصوص المدرجة في الكتب المدرسية. حتى لا يتم الاحتكام إلى المعايير الفردية. لهذا يتم اعتماد حجم التلقي الذي خلَّفه تداول نص شعري ما وخاصة التلقي النقدي. على اعتبار أن أهل الاختصاص هم أدرى بصناعة الشعر وطرق بنائه وإنتاجه للدلالة.

لهذا فإذا قمنا باستقراء حجم الدراسات والقراءات النقدية التي عرفتها مثلا قصيدة «مقابلة خاصة مع ابن نوح»[5]. فإننا نجد دراسات وقراءات يصعب حصرها[6]. أنجزها نقاد وباحثون مختصون في دراسة الشعر العربي المعاصر. وهي قراءات تلتقي عند التأكيد على القيمة الفنية العالية والأبعاد الدلالية الغنية لهذه القصيدة. لهذا فإن عملية اختيار النصوص في مسألة تأليف الكتب المدرسية عملية ليست بسيطة. لأن اختيارها تتحكم فيه معايير نقدية وجمالية وقيمية ومنهجية ومدى ملاءمتها للمهارات اللغوية والتعبيرية. التي يسعى المكونان الآخران في الكتاب المدرسي (الدرس اللغوي ودرس التعبير والإنشاء) إلى تنميتها لدى المتعلم. لكي تساهم في بناء كفاياته التواصلية والثقافية والاستراتيجية والمنهجية[7]. باعتبارها كفايات يُفترض في الكتاب المدرسي الإسهام في تحققها لدى التلميذ.

لهذا يمكن القول إن انطلاق كاتب المقال من مثل تلك المصادرات المسبقة على قيمة وأهمية نص أدبي ما. يقود إلى بناء معرفة أدبية تتسم بالوثوقية المطلقة التي تجاوزها الدرس الأدبي المعاصر. لأسباب متعددة منها ما هو مرتبط بطبيعة النص الأدبي والشعري بشكل خاص. الذي يتميز بخاصية «فرط التعقيد» الناتجة عن اشتغاله المختلف على العناصر اللغوية. وقيامه على التخييل والمجاز. مما يقود إلى تشكيل كون شعري يتسم بخصوصيات معينة.

والنوع الثاني من الأسباب يرتبط بتمثلات المتعلم. الذي لا يقرأ نصا ما دون معرفة مسبقة. فهو ليس صفحة بيضاء سيملؤها المدرس بما يشاء من معارف. فالمتعلم يمتلك أفقَ توقع يضم أفكار ومعارف مسبقة حول الانتماء الأجناسي للنص المدروس وخصوصياته. وبالتالي فإن هذه المعرفة المسبقة تجعله يمتلك ذخيرة أو ذائقة أدبية محددة. تشرط عملية تلقيه لأي نص جديد. وهذه المسألة شديدة الصلة بعمليات تَمَثُّل التلاميذ لمفهوم الأدب وإدراكهم لطبيعته وأهميته. وهو ما أكدته أبحاث علم النفس المعرفي. عندما راهنت على دور التمثلات في بناء وضعيات تعليمية ناجحة. وفي تحقيق تواصل تربوي فاعل.

يبقى السياق الذي يندرج فيه النص نوعا ثالثا من الأسباب التي تفرض على المدرس مراعاتها في تدريس الأدب. بحكم انتماء النص إلى ثقافة معينة تتصل برهان اجتماعي محدد. وهو ما يتحقق في نص «مقابلة خاصة مع ابن نوح» بامتياز. فهذا النص كُتب في لحظة تاريخية تميز فيها المجتمع العربي والمصري على الخصوص بصراع حاد بين تيارين متعارضين. تيار التغريب والانتصار إلى كل ما هو وافد جديد. تُحركه في ذلك مصلحتُه المادية الخاصة. وبين تيار متشبث بالانتماء إلى الوطن وقضاياه في السلم والحرب في الشدة واليسر.

ومن هنا يأتي استحضار سفينة نوح في القصيدة كنوع من «التناص» المقلوب. ففي الوقت الذي اختار فيه ابن نوح عدم الصعود إلى السفينة تجبرا وإمعانا في الكفر. يرفض الشاعر ومعه شباب المدينة صعود السفينة المعاصرة حبا للوطن. بعدما صارت السفينة في السياق الجديد. ترمز إلى المصلحة الشخصية الضيقة التي تجعل الانتهازيين يفرون إليها في اتجاه الضفة الأخرى. بعدما استنزفوا خيراته وأغرقوه في براثن الفساد والضياع. هؤلاء الذين لا قيمة في حياتهم إلا للمصلحة المادية. يعيشون ازدواجية الانتماء والمعتقد والوطن. يتمرغون في خيرات الوطن فإذا ما تعرض لعدوان أو مكروه يمتطون السفينة أو الطائرة ويصبحون في وطن آخر. لأنهم يمتلكون القدرة على تغييره كما يغيرون حذاء بحذاء.

إن استدعاء النص القرآني في الشعر العربي المعاصر ليس غاية في حد ذاته. بل يأتي في سياق البحث عن بنية شعرية متفاعلة العناصر. وذات امتداد ثقافي وحضاري عميق. تمكن الشاعر من تشكيل رؤيا شعرية تجاه الإنسان والمجتمع. قائمة على وعي بطبيعة الأسئلة والمواقف التي تعتمل في عمق المرحلة التاريخية. ومنحازة لقضايا الإنسان في واقع تطغى فيه المصالح الفردية على حساب القيم الجماعية. مما يفرض على الشاعر ضرورة تأهيل وعيه الفني. من خلال البحث في هندسة القصيدة المعاصرة وتجديد معماريتها. لتمتلك طابعا دراميا جدليا يؤهلها لالتقاط طبيعة الصراع والحركية الخفية المتحكمة في عمق المجتمع.

ولعل التأمل العميق في قصيدة «مقابلة خاصة مع ابن نوح» يكشف بشكل جلي الطابع الدرامي الذي

يقوم عليه بناءها. فهي تتأسس على موقفين متعارضين بين من يستغل الوطن ويستنزف خيراته في زمن السلم والرفاه ويتخلى عنه في زمن الشدائد والأزمات والحروب ويختار سلامته الفردية. وبين من ينتصر لهذا الوطن في سائر حالاته ومراحله. هذه هي القيمة المركزية التي تنهض عليها قصيدة أمل دنقل. إنها قيمة المواطنة وهي قيمة أخلاقية ودينية وإنسانية سامية. ما أحوج الفئة المتمدرسة في المرحلة الثانوية التأهيلية إليها. لا سيما وأنها تأتي في عمق رسالة شعرية لا تنهض على التعبير المباشر كما هو عليه الأمر في الخطابات التعليمية الأخرى. بل تأتي في سياق خطاب شعري يمتلك مقومات فنية هائلة. مما يفرض ضرورة تمهير التلميذ على طرائق ومناهج قراءة وتحليل النص الشعري من خلال مدخل يؤكد يعتبر اللغة الشعرية لغة تنزاح عن لغة التواصل المباشر. بفعل الإمكانيات التخييلية والمجازية والاستعارية التي تكتنزها. وما يسم الشعر العربي المعاصر من خصائص تميزه عن الأنماط والخطابات الشعرية السابقة عليه. كتوظيف الرمز والأسطورة والنصوص الدينية والتاريخية وغيرها من المكونات الفنية والمرجعية التي تتفاعل في تشكيل لحمة القصيدة وبنائها.

لهذا يمكن القول في ضوء ما سبق أن التعامل مع البعد القيمي في النص الأدبي والشعري على وجه التحديد. يفرض إعادة النظر في العديد من التصورات والممارسات المرتبطة بتدريس الأدب في المرحلة التأهيلية بالتعليم الثانوي. وذلك لكون سيرورة التدليل في النص الشعري ليست عملية بسيطة وتقتضي معرفة بآليات اشتغاله وطرائق بنائه للدلالة. كما يقتضي هذا الوضع أيضا انفتاحا على أبحاث القراءة والتلقي للوقوف على الميكانيزمات المتحكمة في عمليات التلقي. وذلك في سياق ديداكتيكي وبيداغوجي قادر على إعادة ضبط تفصلات المعرفة النقدية والنظرية والمعرفة التعليمية. في اتجاه التحديد الواضح للكفايات التربوية المستهدفة والتصميم المنسجم للوضعيات التعليمية التعلمية. واختيار الأنشطة الملائمة واعتماد أنماط التقويم الفعالة والواضحة. بشكل يمكن المتعلم من امتلاك أدوات التحليل وتنمية قدرته على التفكير المنهجي المنظم.

وهو ما يمكن تلمسه من خلال رصد وتتبع طرق تعامل التلميذ مع النصوص الأدبية. فالقراءة المنهجية تفترض معرفة مسبقة بخصوصية النص الأدبي باعتباره كيانا فنيا تتشابك مجموعة من العناصر في تشكيله. وتشرطه سياقات اجتماعية وثقافية وسياسية وإرغامات نفسية ترتبط بالعالم الداخلي للمبدع. هذا بالإضافة إلى الوعي بطبيعة اللغة الأدبية ومميزاتها. لتجاوز الظاهر النصي في اتجاه استنطاق ذاكرة النصوص وأنساق تشكلاتها الخفية.

ومن هنا تصبح القراءة المنهجية للنصوص الأدبية عملية معرفية وديداكتيكية. تستدعي من المدرس انفتاحا على مختلف النظريات الأدبية. والمناهج النقدية والمراجعات المختلفة التي طرأت على العديد من التصورات النقدية وأنماط التفكير الأدبي. حتى لا تخضع عملية تدريس الأدب لإسقاطات إيديولوجية جاهزة. وإن كان القارئ أو المتلقي عموما لا يستطيع التخلص من ارتباطاته الاجتماعية وقناعاته الإيديولوجية الواعية منها واللاواعية. لكن الانتقال إلى مستوى الإقراء أو التدريس يفرض عليه أن تكون قراءاته للنصوص المختلفة خاضعة لشروط القراءة المتسقة المستندة لاستراتيجيات قرائية قائمة على خلفية معرفية أدبية واضحة. قادرة على تبرير الدلالات والقيم التي يستخلصها من النص.

مقابلة خاصة مع ابن نـوح

أمل دنقـل

جاء طوفان نوح !

.....

المدينة تغرق شيئا ... فشيئا

تفر العصافير

والماء يعلو

على درجات البيوت – الحوانيت – مبنى البريد – البنوك

التماثيل (أجدادنا الخالدين) – المعابد – أجولة القمح

مستشفيات الولادة – بوابة السجن – دار الولاية –

أروقة الثكنات الحصينة

العصافير تجلو ..

رويدا .. رويدا ..

ويطفو الإوز على الماء

يطفو الأثاث ..

ولعبة طفل ..

وشهقة أم حزينة ..

الصبايا يلوحن فوق السطوح !

جاء طوفان نوح

هاهم الحكماء يفرون نحو السفينة

المغنون – سائس خيل الأمير – المرابون –

قاضي القضاة

(.. ومملوكه !) –

حامل السيف – راقصة المعبد

(ابتهجت عندما انتشلت شعرها المستعار)

– جباة الضرائب – مستوردو شحنات السلاح

عشيق الأميرة في سمته الأنثوي الصبوح !

جاء طوفان نوح

ها هـم الجبناء يفرون نحو السفينة

بينما كنتُ ..
كانَ شبابُ المدينة..
يُلجمون جواد المياه الجموح
يَنقلون المياه على الكتفين
ويَستبقون الزمن
يَبْـتنون سدود الحجاره
عَـلَّهُم يُنقذون مهاد الصِّبا والحضارة
علهم ينقذون ... الوطن!
.. صاح بي سيد الفلك – قبل حلول
السكينه :
« انج من بلد ... لم تعد فيه روح »
قلت:
طوبى لمن طَعمُوا خُبْزَهُ..
في الزمان الحسنْ
وأداروا له الظَّـهُر
يوم المحن !
ولنا المجد – نحن الذين وقفنا –
(وقد طمس الله أسماءنا !)
نتحدى الدمار.
ونأوي إلى جبل لا يموتُ
(يُسَمُّونه الشعبَ!)
نأبى الفرار..
ونأبى النزوح !
... ...
... ...
... ...
كان قلبي الذي نَسَجَـتْهُ الجروحْ
كان قلبي الذي لَعنـتْهُ الشُروحْ
يرقد – الآن – فوق بقايا المدينَـهْ
وردةً مِنْ عَـطَنْ
هـادئاً

بَـعْدَ أَنْ قال « لا » للسفينةْ
... وأَحـبَّ الوطنْ !

الأعمال الشعرية الكاملة (ديوان أوراق الغرفة 8) دار العودة. بيروت
ومكتبة مدبولي ـ القاهرة. الطبعة 1985 / 2. ص 396 -393.

الهوامش:

1 ـ الفرقان (إسلامية ثقافية) الدار البيضاء. العدد60 1429-2008.

2 ـ انظر نص المقال في المجلة المذكورة من الصفحة 34 إلى الصفحة 38.1

3 ـ نفسه ص 36.2

5 -H. R. Jauss : «Pour une esthétique de la réception», Gallimard, Paris 1978 p - 49

5 ـ نظرا لأهمية القصيدة وحتى تكتمل الصورة لدى القارئ آثرت أن أثبت في نهاية هذا المقال نصها الكامل.

6 ـ نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

د. سيد البحراوي: «في البحث عن لؤلؤة المستحيل». دار الفكر الجديد بيروت الطبعة الأولى 1988.

د. جابر قميحة : « التراث الإنساني في شعر أمل دنقل» هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان. القاهرة 1987.

حسن الغرفي: « أمل دنقل: عن التجربة والموقف» مطابع إفريقيا الشرق. الدار البيضاء 1985.

عبد السلام المساوي: « البنيات الدالة في شعر أمل دنقل». منشورات اتحاد كتاب العرب. دمشق. 1996.

7 ـ تجدر الإشارة إلى إن بناء الدروس في هذا الكتاب وغيره من الكتب المدرسية المقررة في التعليم الثانوي التأهيلي لا يخضع لمراحل وشروط التدريس بالكفايات. فهذه الأخيرة لا تحضر في بدايات المجزوءات إلا كشعارات يسعى الكتاب إلى تحقيقها لدى المتمدرس. بينما تخضع الدروس لطريقة التدريس بالأهداف (وبالتحديد صنافة بلوم) وهذه مفارقة يجب الانتباه إليها حتى ينسجم الخطاب التربوي مع ممارساته الصفية.